جـــامعة الإخـــوة منتـــــوري قسنطـــــــينة

كلـــــية الآداب و اللغـــــــات

الأستاذ الدكتور: ديـاب قديـد

أثر التربية في تشكل المفاهيم وتهذيب السلوك في الحياة والوجود

بحث في الآليات وعلائق التربية الجمالية في مواجهة التغريب والعولمة

تتفق جميع مراكز الأبحاث العلمية والدراسات الاستشرافية على أن الإنسان محور الوجود، من حيث إنه القادر على حماية كينونته، وبناء وجوده، واستمراريته في الحياة من خلال أن صنيعه لا يتوقف في يوم من الأيام، بل هو دائم الطموح، ويحمل على عاتقه جملة من القضايا الكبرى في الوجود، ويحاول تحقيق ما أمكن تحقيقه، لأنه يعتقد أن وجوه يتطلب منه قدرا كبيرا من تحمل المسؤولية، وبناء تفكير جديد من أجل تحسين واقعه، وحسن التكفل بذاته والآخرين، لأنه لا مكان له في هذا الوجود إلا بالآخر، لأنه يقدم له الدعم من خلال التمارين الأفكار والطروحات، وتباين وجهات النظر في مسائل تهّم الإنسان بغض النظر عن انتمائه وجنسه وثقافته.

إن الوجود الإنساني فرصة كبيرة للبناء، وتجسيد مشاريع من الأفكار التي يتبناها الإنسان ويراها عامل إضافة فرعية في الحياة من أجل تخليد ذاته وأفكاره في الذاكرة الإنسانية ويكون عنصرا مهما في صناعة الأفكار، وبناء وحضارة قوامها العلم والمعرفة والأخلاق والقيم، لأنه ليس صحيحا أن يكون هـ ناك تجمع متمدن ومتقدم من الناحية العلمية والتكنولوجية، ولكن منحط من ناحية القيم، ولعل هذا ما سعت إليه البشرية في حركيتها النظرية إلى الاهتمام بترسيخ قيم جمالية تعمل على حماية الذات الإنسانية من الانهيار، والوقوع في معطيات تدني القيم في المجتمع.

إن حرص الأمم السالفة، واتمام الحضارات السابقة مؤشر إيجابي على أن للقيم الجمالية دورا كبيرا ي تشكيل المجتمعات وتهذيب السلوكات، وترشيد المجتمعات إلى ما فيه خير لها من حيث التكوين والبناء وصوع التربية الجمالية في الوجود والحياة.

انطلاقا من هذا التصور المفاهيمي، دأبت الأ مم في بناء الفرد والمجتمع على ضرورة الاهتمام بصقل مواهبه وتهذيب سلوكاته بمجموعة من القيم منذ النشأة الأولى على اعتبارها المصدر الأساسي في بناء شخصية الفرد وتشكيلها من خلال الاعتماد على هذه القيم الجمالية، ذلك أن الطفل إذا ما نشأ تنشئة صحيحة، واغترف من معين القيم المؤسسة لنظام المجتمع والداعية إلى ضرورة تحضير الطفل وتهيئته حسب

الأنساق الاجتماعية والأخلاقية والجمالية المتفق عليها من قبل المجتمع، وهذا من أجل إعداده إعدادا يتماشى مع تطلعات المجتمع، ويكون قادرا على أن يكون رجل المرحلة القادمة مستقلا، وربما هذا م ا غاب عن الفكر العربي الحديث، إذ أهملت المجتمعات العربية دور التربية الجمالية في التحصيل المعرفي والاجتماعي ومع مرور الوقت فقد الإنسان العربي الإحساس بالتذوق الجمالي للأشياء المحسوسة والمعنوية، وهو نتج عن ذلك هذا الواقع العربي البائس فأصبح الإنسان العربي ب عيدا عن سقف تطلعاته، وليس بمقدوره على الإطلاق في ظل هذا الانكماش الأخلاقي، وهذا التردي على مستوى انهيار القيم، وفقدان لذة التذوق الجمالي أن يخرج من هه الوضعية، وأن يبدل حاضرا بمستقبل كفيل بأن يعيد البسمة إلى الوجوه، ويستعيد الإنسان العربي عافيته لا سيما إذ ا ما إذا علمنا أن كل مقومات النهضة وشروطها موجوده، ولكن بشرط يجب تفعيلها، وجعلها مكسبا جماليا تطبيقيا، لأن القيم الجمالية لا يمكن أن تأخذ أشكالا مستقبلية إلا بعدما يتم تنزيلها إلى الواقع والعمل بها على مستوى السلوكات والأفعال.

إن غاية الدارس الفلسفية، والا تجاهات الفكرية قديما وحديثا كانت تقوم ببناء شخصية الطفل من جميع النواحي، ولم .....الأمم المتحدة جهدا في ضرورة العمل على هذا المحور وحست إعداد الطفل في جميع مراحل طفولته إدراكا منها بأن العملية التربوية تتأسس من خلال الطفل، وذلك من خلال غرس هذه القيم الجمالية لأنها عماد التربية، فالجمال والحسن والرقة، والطيبة والبشاشة، والابتسامة عناصر قيمة مهمة جدا في حياة الطفل، وتكون أكثر أهمية ودلالة ووظيفة في مرحلة الكبر، وأصاب فيما قال المتنبي:

من يك ذا ....مريض=يجد درّا به الماء الزلالا

وهذا يتفق مع طروحات الفيلسوف شي لر فيما يرى لو لا أن الجمال غاية على مستوى التحقق، وسيلة على مستوى المنهج مما يجعل .....منهجا يحقق ذاته، وحين يتمّ النظر إلى الاستطيقا من هذه الزاوية، وبهذا المنظور يتحقق للاستطيقا إطلاقها ولا نهايتها وفعلها الحر »[1].

ولا يختلف إثنان في أن الجمال م رتبط بالجانب الامتاع فقط، بل يمتدّ أثره إلى الجانب المادي محدثا فائدة على مستوى السلوكات والأفعال وهو ما عبّر عنه الفيلسوف الألماني كانط بأنه امتاع وفائدة » وعليه كان تركيز الأمم والمجتمعات العربية على الجمال بوضعه شكلا إيجابيا من أشكال ممارسة تذوق الجمال، وهو ما يعمل عليه الأفراد والشعوب إذا ما أرادت الارتقاء بالأمة إلى مصاف المجتمعات المتقدمة والمتمدنة لأنه لا يكفي على الإطلاق أن تكون متطورا تكنولوجيا، ومتخلفا من ناحية التربية الجمالة، إذ أن الأمران يسيران مع بعضهما، والأول يستلزم حضور الآخر تلقائيا، لأن ا لقيم الجمالية هي التي تسهم في الحفاظ على هذا الرقي المدني والتكنولوجي والعلمي، وليس من الطبيعي أبدا أن يكون التباين حاصلا بين التربية

الجمالية والتقدم العلمي ولا يتحقق التطور بمعزل عن فعل ممارسة الإحساس بالجمال، والشعور بالمتعة النفسية وهذا إحساس داخلي فرودي يتأسس تلقائيا بنقل الممارسة الذوقية لكل ما هو جميل، فهو يحدث نقلة نوعية على مستوى الأحاسيس والمشاعر من جهة و ...طاقة حرارية في العمل، إذ أن التذوق الجمالي هو صناعة للفرد، وبناء للمجتمع وحصن حصين من التردي والسقوط في مستويات من الانحطاط الفكري والاجتماعي.

إن مفعول التربية الجمالية لا يقل عن أي مفعول آخر، على الرغم من أن هناك من يحاول دائما تصوير القيم الجمالية على أنها إسراف في المشاعر، وإطلاق العنان لمفهوم لا يخدم الفرد، ولا يشكل مجتمعا قويا، وهنا مكمن الانزلاق الفكري وعليه يستدعي من القائمين على شؤون ال تربية، وإعداد المجتمع إلى إعادة النظر في بعض المسائل المفصلية والجوهرية التي لم تلق اهتماما من قبل الجهات المسؤولة عن التفكير في إعداد مشاريع بناء المجتمع ولهذا فإن المجتمعات العربية مطالبة في تغيير رؤيتها من ناحية عرض منظومة تربوية تعنى بالتربية الجمالية لتكون واحدة من أولوياتها في المنهج التربوي المعاصر خاصة إذا ما أرادت الخروج من هذا الوضع، إذ يرى مالك بن نبي أن هذا العالم الإسلامي هو الذي يحقق الظروف النفسية لظهور "الإنسان الجديد" وأن رسالته في هذا العصر التوفيق بين العلم والضمير، بين الأخلاق والصناعة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، وأنه في منتصف الطريق إلى هذه الغاية»[2] .

لقد وضع مالك بن نبي يدّه على الجرح الذي ينخر المجتمع الإسلامي ذلك حين يصبح الإيمان إيمانا جذبيا دون إشعاع أعني نزعة فردية فإن رسالته التاريخية تنتهي على الأرض، إذ يصبح عاجزا عن دفع الحضارة وتحريكها إنه يصبح إيمان رهبات يقطعون صلاتهم بالحياة، ويتخلون عن واجباتهم ومسؤوليتهم...»[3] .

ولعل ما يطرح مجموعة من الأسئلة الجوهرية لماذا العالم العربي الإسلامي متخلف؟ ولماذا لا تعنى الشعوب العربية بالتربية الجمالية؟ وهل التذوق الجمالي حالة مفارقة أو مناقضة للتدين؟

إن القراءة التحليلية لواقع العالم العربي الإسلامي يلاحظ أن هذه الشعوب أساءت فهم كثير من الأفكار وأخطأت في تلقي بعض المفاهيم، ولهذا تقوم بتقديم تأويلات غربية، غير منسجمة مع جوهر الاعتقاد والتمدن، ولهذا ظل العالم الإسلامي يعاني من هذه السلوكات الغربية ولتصرفات المتناقضة والمجسدة لحالة من الاحتقان والمكرسة لأشكال الانحطاط القيمي، وهو ما يعكس صورة مأسوية للإنسان العربي من حيث السلوك والأفعال، وللخروج من الوضع لا بد من إحداث ثورة في المفاهيم والأفكار والرؤى لتتماشى مع طموحات الإنسان المعاصر، ويكون قادرا على أن يكون عنصرا مهما في البناء والتقدم.

بناء على هذا فإن التفكير العربي لم يستطع تخطي بعض الطابوهات العادات والتقاليد المتوارثة خطأ في استيعاب مفهومه ودلالاتها الحقيقية وهو ما زاد في اتساع الهوة واتخاذها نمطا فكريا صحيحا واعتقاديا وهو ليس صحيحا بل إن نمطية التفكير العربي في العالم الإسلامي كرست كثيرا من المفاهيم وجعلتها منطلقا صحيحا عند الإنسان ولهذا يدافع عنها بقوة وإيمانا منه بأحقيتها وصحتها وصواب أفكاره.

إن الواقع العربي بخاصة ماسة إلى ثورة في الفكر ليستطيع الإنسان التخلص من كثير من الممارسات السلوكية والفكرية الخاطئة، وربما يمكن ذلك أن يكون تحررا في تفكيره وتصرفاته، وإني على تعيين إن بقي الوضع على هذه الحالة فلن يتمكن العالم العربي الإسلامي من الخروج من هذا ...الفكري، والتخلف الديني والانحطاط القيمي، وهذا ما يستدعي إجراءات استعجالية لتقديم مخط ط مشروع بناء مجتمع متماسك، متلاحم منسجم مع مبادئه وعقيدته، ولهذا تتعالى الأصوات بين الحين والآخر بضرورة إعمال العقل، وتفعيل المدركات الفكرية عند الإنسان العربي لكن لا يكون عبارة عن كرة تتقاذفها الأرجل، كيفما شاءت وليس بمقدور الإنسان العربي المسلم فعل شيء إزاء هذا الوضع، إضافة إلى ذلك هناك قناعة خاطئة عند الإنسان العربي وهو أن الثروة هي التي تصنع الرجال والمجتمعات وهذا ما وقعت فيه أغلب الدول العربية فأهملت الإنسان وراحت تركض وراء الثروة، فأخفقت في صناعة مجتمع متقدم متمدن بل كل ما في الأمر أنها استوردت آلات وشيّدت مباني وأرجاء ولكنها خاوية من المحتوى القيمي والدلالي والحضاري والثقافي، ولهذا فهي تحمل جذور فنائها في ذاتها خاصة إذا لم تسارع إلى تدارك الأمور ومعالجة هذا الواقع، بالعودة إلى المرحلة الأساسية وهي الاعتناء بالإنسان فكرا وثقافة وقيما، لأنه من السهل أن نجمع ثروة ولا نحافظ عليها إذا كنا نعتقد على أنها مقومات الإنسان، ولكن في المقابل يمكن أن نصل إلى ثروة إذا هيأنا الإنسان بين جميع النواحي، اجتماعيا ثقافيا دينيا وعقليا، وهنا تكون العلامة الفارقة بين من يسعى إلى بناء فرد للوصول إلى مجتمع صالح ومتمدن وبين من يجمع ثروة بلا إنسان فيتحول هذا الإنسان في لحظة من اللحظات إلى وحس لا يميز بين ما هو نافع لمجتمع وبين ما هو نافع له فقط، ولهذا يهتم الإنسان العربي بنفسه، ويهمل الآخر، وحينما يتحول الناس إلى هذا الفعل، فأعلم أن الخطر قادم لا محلة وقد أشار مالك بن نبي إلى أن أسباب الضعف الذي انتشر في المجتمع وأخذ نموذجا للمجتمع الجزائري من خلال وقوفه على هذه المفارقة العجيبة بين المتعلم العربي والمتعلم الأوروبي يكمن في أمرين:

1-الفرد لا يدين بصفاته الاجتماعية لتشكيله المدرسي، ولكن لشروط خاصة بوسطه.

2-أما من حيث سلوكنا السلبي إزاء هذه المشكلة أو تلك فإن جميع أسباب اللافعالية الخاصة بوسطنا هي التي تجعل منا أشخاصا فاقدين للفعالية [4].

ولعل سبب ذلك إلا أن المجتمعات العربية الإسلامية لم تقدّم مشروعا متجانسا علميا ومدروسا بطريقة دقيقة بعيدا عن التهويل والمبالغة ورفع الشعارات، لأن ينبغي أن نتخلص من كل هذه الأساليب المفرغة من المحتوى السلمي الثقافي، وأن تقف مع ذواتنا لحالة من المكاشفة وفق الذات وعلى المثقف العربي أن يواجهه الواقع بحالة من العقلانية والموضوعية وأن يقف بجرأة وشجاعة في تشخيص ذاته، ووضع الوسائل والإجراءات الكفيلة من أجل الخروج من هذه الأزمة فالمجتمع «الإسلامي يعاني في الوقت الحاضر بصورة خاصة من هذه الاتجاهات لأن "نهضته" لم يخطط لها، ولم يفكر بها بطريقة تأخذ باعتبارها عوامل التبديد والتعويق.

فمثقفوا المجتمع الإسلامي لم ينشئوا في ثقافتهم جهازا للتحليل والنقد إلا ما كان ذا اتجاه تمجيدي يهدف إلى إعلاء قيمة الإسلام. أما القادة السياسيون فإنهم لم يؤمنوا بضرورة إنشاء مثل هذا الجهاز ليراقبوا مسيرة العمل في بلادهم»[5] .

إن هذه الصورة تنسحب على جميع المجتمعات العربية الإسلامية، إذ جمعت بين الاتجاه التمجيدي والسياسوي لخدمة توجهاها بعيدا عن الفكر الصحيح في المسألة وطريقة الخروج من هذا الواقع، وتمكت في كل مرة أثناء إلقاء محاضرتي بالجامعة أدعو إلى ضرورة الإسراع بتقدم مشروع لبناء الإنسان منذ طفولته سعيا لبناء مجتمع متمدن ومتحضر، ولكن ليس هناك آذان صاغية، ....هذا المشروع عن أغلب الدول الع ربية والإسلامية زاد في تأزيم الوضع والاحتقان الفكري والجمالي، ولهذا نستغرب كعرب ومسلمين حينما نمارس سلوكات في غاية البؤس والتخلف، حيث نرمي القمامات أمام بيوتنا ومن نوافذ عماراتنا، ونقوم بالبصاق في الشوارع ونرمي الأكياس والعلب وأشياء غريبة، وتدافع في ركوب الطائرات ونقاتل من أجل الدخول إلى الطائرة أولا، ولكن بمجرد أن تحط بنا الطائرة المدرجات الأوروبية، تحول من وحوش إلى ملائكة، تتسم بالرقة والهدوء والانضباط وعدم الاستعجال وأن نبادر الآخرين بآيات من التلطف والتأدب والتحضر سواء بعبارات راقية أو بسلوكات متحضرة أو في أشكال مظهرية تعكس أناقتنا ونظافتنا وحرصنا الشديد على أن تقدم صورة في غاية الجمال والروعة، وهو عكس ما يحصل في أغلب البلاد الإسلامية، إذ أن كل مظاهر التخلف والانحطاط موجودة ودالة على أنك موجود في البلاد الإسلامية، ثم في أحيان كثيرة نقوم بجلد ذواتنا، ووصفها بأنواع من الغلو والبشاعة والتخلف ولكن ليس هناك نهضة أو نقلة نوعية للاستدلال على صحة ...وصدق مشاعرنا، بل كل ما في لأمر أننا نطرب بالمقدمات الطلالية البكائية، وليس فيها ما يكون إجراءا عمليا للخروج من الأزمة، وكأننا اعدنا على البكائيات وأصبحت حالات لازمة في أقوالنا وأفعالنا.

بعد هذا التوصيف الدقيق للواقع العربي الإسلامي يلحظ أن هذا الوضع كأنه قرر محتوم على هذه

الشعوب، بواجب الخضوع، والانقياذ، وفقدان القدرة في التغيير، وكأنها تعاليم سماوية تنص على ذلك، وتدعو إلى الاستجابة المطلقة ولا يجوز بأي حال من الأحوال التفسير عن هذا الوضع، وطرح الأسئلة التي من شأنها توضيح الأشياء، ومناقشة الأسباب أو البحث في عوامل التغيير، ولعل السلطات العربية على مر العصور منذ الدولة الأموية إلى وقت الحاضر كرّست هه المفاهيم حيث استخدمت الدين لتمرير مشاريعها السياسية المضللة والهادفة إ لى بسط سلطتها ولهذا كلما تعالت الأصوات المنادية للتفكير العقلاني الجاد للخروج من هذا الوضع من خلال البحث عن ميكانيزمات وبدائل تكون قادرة على الانتقال من حلة الضعف إلى القوة ومن رفع مجرد شعارات قولية إلى أن تتحول سلوكات إلى حركات نفعية جمالية بعيدة أن توصف الشعوب العربية الإسلامية بالدماء، لأنه في اعتقادي ليس هناك شعوب أرقى من لأخرى، أو أنها ولدت قوية، أو تمتلك الحضارة، بل نتج عن ذلك إرادة في التغيير ورغبة في الانتقال وحبا في الحياة الكريمة والهادئة والمطمئنة التي توفر فيه شروط الحياة كما يرى الإنسان العربي ذلك في صورة الأوروبي وليست الحياة عبارة عن أكل فقط، بل حتى هذا المفهوم لم يعد صالحا في الوقت الحالي، لأن حتى الأكل ليس بالمقاس العالمية ووفق شروط علمية، بل نسمع ونرى هناك وهناك نماذج على أن الأكل لا يخضع للمواصفات المعمول بها دوليا، بل قد نتج عن ذلك أضرار صحية وخاطر جمة نتيجة أن هناك بعض الأكل والمشروبات لا تخضع للرقابة العلمية والصحية ولكن في كل مرة تحاول إيجاد تبريرات غبية وتفسيرات خرافية على أن هذا الأمر مكتوب فيما تحل الكارثة ويقع المكروه بهذه الشعوب ولكن في كل مرة لا نستفيد من هذه الظواهر، ولا نتخذها علامة للتغيير بل لا تكون لحظة في عودة الوعي إلى الضمائر العربية الإسلامية بوجوب نفض الغبار ودفع الضعف، والإحساس بالمسؤولية في رسم معالم مستقبلنا على أسس حضارية ويجب أن نأخذ بشروط النهضة قولا وفعلا، لأنه السبيل إلى الخروج من هذا الوضع.

إن الدراسات السابقة والحالية في قراءة وضع المجتمع الإسلامي وتحليله، والوقوف على مسبباته، وتقديم الحلول الضرورية لتجاوز هذه الإشكالات، اثبتت أن المجتمعات الإسلامية ما زالت عاجزة عن الخروج من هذا المأزق، إذ فقدت الإحساس بالمسؤولية، وغاب حاسة التذوق الجمالي، وليس باستطاعتها الرغبة في تجاوز هذه الحالة، وربما هذا ما يفسر قول مالك بن نبي أن هذه المجتمعات لها قابلية للاستعمار، ولهذا فهي غير قادرة على الإطلاق أن تتقدم أو تؤسس تواعد وأدوات يمكنها من التعاطي مع كل ما هو إيجابي أو نفعي أو جمالي يعود عليها بالفائدة، والغريب في الأمر أن هذه الشعوب ذاتها ستنكر هذا الواقع، وتندّد بهذه الأفعال والأقوال التي لا تتماشى مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ولا تتوافق مع طموحات الشعوب المتقدمة.

إن هذه الازدواجية التي تعاني منها الشخصية العربية والمسلمة، تؤكد مسألة مهمة وأن الفرد العربي المسلم أصبح للقدرة رقي الأهلية في معالجة مشاكلة، من خلال أولا العودة إلى تقديم طروحات معرفية وأخلاقية وعلمية تكون سبيلا إلى تكوين أرضية صلبة تكون منطلقا أساسيا لكل انطلاقة ثانيا قراءة تاريخ الحضارات والاستفادة منه في بلورة مفاهيم جادة وكفيلة في التخطيط لبناء مشروع مجتمع متمدن وقوي بمبادئه وأخلاقه وأن لا يستصغر بعض السلوكات التي ربما يراه غير مجدية.

إن الروح الاقتصادية والنفس المؤمنة بأن الحضارة مشروطة بتوفر مجموعة من الأسس الكفيلة بتحقيق الانطلاقة الفعلية نحو التحضر، وليس مجرد رفع شعارات قرية أو سياحية أو دينية للوصول إلى الحضارة.

إن هذا الأداء الشعاري الهتافي الخرافي لا يمكن أن يحقق فرص النجاح والتقدم، وعليه فإن المجتمع العربي والإسلامي يعاني منذ قرون من حالة التحجر القبلي والمدني وهو في ذيل التصنيفات العالمية من حيث التخلف والانحطاط وسوء السلوكات وهذا التشنج بين أفراد المجتمع، إذا غابت هذه اللمسة الجمالية في افعالنا وأقوالنا، وامتد الهون إلى جسم الأمة، وأصبحنا تذرف الدموع حيث لا يجدي نفعا، ولهذا التحضر هذه المقولة لأم عبد الله آخر ملوك الأندلس حينما سقطت مما قل المسلمين، وجاء إلى أمة باكيا يشكو أمره وينذب حظه لما آل إليه أمر المسلمين فقالت له الأم: لا تبك يا ولدي كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال.

إن العبرة التي يمكن استخلاصها من هذا القول هو أن الأقوال والشعارات لا تحقق الغاية المرجوة من أي طموح ما لم يكن مقرونا بالعمل وخير ذلك على أن الله عز وجل في القرآن الكريم ما وردت لفظة إيمان واقترنت بالعمل «يا أيها الذين آمنوا وعملوا الصالحات».

إن مشكلة المجتمع الإسلامي في أنه يحمل شعارات وخطابات مفرغة من المحتوى العملي، ولهذا أصبح واقعهم مجرد موت بطيء وأن كل الدعوات والتمنيات التي تقدم عبر الأزمة والأمكنة ليس لها مفعول على الإطلاق لأنها لا تعتمد على آليات منهجية علمية، بل رفعت شعارات واحتمت بأماني خرافية لعلها تستفيق ذات يوم من نومها فتبعد نفسها وقد وصلت إلى ذروة التحضر والتمدن وأن جميع مشاكلها قد عولجت وأن أسباب الضعف قد اختفت، وحلّت ساعة الحقيقة المتمثلة في واقع جديد.

إن هذه الصورة التي بقي العالم العربي والإسلامي يحملها في قلبه منذ سقوط الأندلس تعكس أن هناك فرقا كبيرا بين الوهم والحقيقة أي أن العالم الإسلامي يعيش حالة الوهم، لأنه ما زال يؤمن بأن الواقع

سيتغير في يوم من الأيام دون سابق إنذار أو توفر أسباب النهضة أما الحقيقة فهي من تنزيل الأفكار من حالة أنها رؤى ومعارف ومشاعر وأحاسيس إلى ممارسة واقعية، وحيث تتحول هذه الأفكار إلى سلوكات حقيقة وهذا هو الفرق بين الوهم والحقيقة لأن الحقيقة لا يختلف حولها اثنان أما الوهم فهو مصدر الخلاف والاختلاف والتأويل الذي لا يجدي نفعا انطلاقا من هذا التصور الابستيمي، ومن أجل الخروج من هذه الحالة المستعصية كان لا بد من التفكير الجدي والمثمر في بناء قيم جمالية بهدف تهذيب السلوك وتفعيل الأقوال لتتحول إلى ممارسات حقيقية بعيدا عن تدجيل أو ممارسة سياسوية أو توظيف الدين لممارسة التنويم المغناطيسي حيث يغيب الفكر، ويحلّ محله الخرافة والاعتقادات التضليلية والتدجيلية.

من هنا جاءت هذه المداخلة لتعيد الاعتبار لأثر التربية الجمالية والتذوق الجمالي في حياة الأفراد والمجتمعات.

أهمية التربية الجمالية:

إن التربية الجمالية تكريس لمفاهيم جماليات الأشياء والمحيط من أجل خلق مجتمع متجانس من حيث الأقوال والأفعال، وهو ما يجسّد أن فعل التربية الجمالية قد كان له انعكاسات إيجابية ونافعة للفرد ولمجتمع وعليه تقوم المجتمعات المعاصرة على الاهتمام بتكريس التذوق الجمالي في الفرد من خلال العناية بمراحل التنشئة الاجتماعية وهذا ما ذهب إليه هيجل فيما اعتبر «أن عظمة الفن تتمثل في كونه تجليا للحقيقة عبر ما هو جميل، وانكشافا للمطلق في ما هو حسي كحدس وصورة ويعني ذلك وجود ارتباط وثيق بين الفن والحقيقة والحرية» [6].

يكشف هذا القول على أن الفن شعور يسري في كيان الإنسان ويوفر له أسباب السعادة النفسية من جهة وتمثيل واقعي يعيش الإنسان في حياته، يمارسه، ويستفيد منه، ويجعل حياته هدفا للاستمتاع من جهة أخرى. ومن ثم يتحول الإنسان إلى مجموعة قيم جمالية يفيد بها المجتمع، ويستفيد منها ولهذا يرى شيلر أن الفن يوفر لنا اللذة الأخلاقية وهو بذلك يؤدي دور الهبوط بين مراودات الحواس ، ومتطلبات العقل وبالفعل إن ما يميّز الفنون هو أنها تمنح تمثيلات حيوية وقيمة فهي من ناحية تسهم في تلطيف حدة المشاعر، وفي تناغم أحاسيس القس...» [7].

ولعل هذا ما جعل المجتمع العربي والإسلامي خاصة يعاني من إشكالات أخلاقية واضطراب اجتماعية وانكسارات نفسية وفقدان لذة الحياة ومرجع ذلك في اعتقادي أن هذه الشعوب أغلبها تحسن الأقاويل، دون أن نترجمها إلى أفعال، ولهذا حينما يقف الإنسان العربي المسلم في إجراء مقارنة بين الواقع العربي والواقع الأوروبي بحيث أن هناك فرقا شاسعا، وفي الوقت نفسه يطرح على نفسه بعض التساؤ لات

ويتعجب مما آل إليه وضع هذه الشعوب، لماذا تأخرنا؟ ولماذا يتقدم غيرنا، وتزداد تأخرا وسوء قيم وأخلاق وأفعال؟

هل قدرنا أن نبقى في هذا الوضع أم آن الوقت للخروج من هذا الوضع، وإحداث انطلاقة حقيقية بأن نغيّر سلوكاتنا، وتقدم بدائل حقيقية غير مصطنعة فعندما «...يصبح الناس شخصيات جمالية سيكون بوسعهم أن يشكلّوا معا مجتمعا يكون الجمال ناظما له، ويسهل هذا المجتمع العبور من دولة الضرورة إلى دولة العقل، وبذلك سيكون المجتمع الجمالي وسيطا بين دولة العقل ودولة الضرورة ...» [8]. وهناك يصبح مجموعة قيم، يتخلى عن كثير من السلوكات الفاسدة بتركها نهائيا، وأن يلبس لبوس الجمال ، فيتصرف وفق العقل وليس بحسب أهوائه ونزواته وأنانيته، إن الإنسان العربي هو مجرد إنسان ورقي، ويحتل رقما في السجلات العالمية والوجود، ولكن لا يقدم إضافة للعالم والوجود، بل في أحيان كثيرة هو يسعى إلى تغريب الحياة، وتدمير ذاته والآخرين سواء أكان والآخرين سواء أكان واعيا أو في غيبوبته، من حيث إن الإنسان العربي المسلم يعتقد أنه أسمى من الآخر، وأفضل منه من ناحية الدين ويتباهى في المحافل الوطنية والدولية بذلك، ولكن الحقيقة أنه يعيش في وهم، فهو بعيد عن الحقيقة، بناء عل ى ذلك فإن هناك أهمية للتربية الجمالية وتعود إلى الضرورات الآتية:

1-ضرورة نفسية:

إن التوازن النفسي في حياة الفرد ضرورة من ضرورات الحياة والوجود وعليه لا تستقيم حياة الفرد بشكل طبيعي ما لم يكن مرتبطا بتربية جمالية ذوقية لكا ما هو جميل في بداية السنوات الأولى من حياته، ذلك أن التنشئة الحديثة (التربية الحديثة) تقدم على غرس في الطفل حب الأشياء الجميلة والمحافظة عليها، وهذا ما يخلق حالة من الارتياح والتوازن النفسي

2-ضرورة حضارية:

إن حضور الجميل في حياة الطفل أمرهم، ولكن الأم منه هو أن يكون الجميل مرافقا في حياته ويجب أن يظل محافظا عليه فلا يكفي على الإطلاق أن تحب الجميل وتتخلى عنه في حياتك، بل الأهم في كل هذا أن تحافظ على هذا الجيل طوال حياته ليكون سندا قويا ل في الأقوال والأفعال، ولهذا تتأكد حاجاتنا الملحة إلى كل ما هو جميل في بناء مجتمع متحضر أو متمدن.

3-ضرورة اجتماعية:

إنسان جميل= مجتمع جميل.

تسهم التربية الجمالية في حقل سلوكات الطفل مع ما يتماشى والواقع الاجتماعي المعاصر، لأن البناء الاجتماعي لا يتأسس إلا عبر التذوق الجمالي لأشكال الصور والأشياء والمحسوسات المعنوية والمادية.

ولعل قراءة في شعر نزار قباني لا سيما في تنويعات نزارية على مقام العشق تتضح لنا جملة من المخاطر في العالم الإسلامي فيما يتخلى الإنسان عن التذوق الجمالي:

كلما أهذيت امرأة زهرة ياسمين.

جاء عمال البلدية في اليوم الثاني

فاقتلعوها

وبنوا ...آخر للنساء.

بناء على هذا فإن إعداد الطفل وتربيته على الجمال، يكبر إحساسه بضرورة المحافظة عليه والدفاع عن هذه المكتسبات لأنها تشمل هويته وشخصيته وصقل مواهبه، وتغذي ثقافته.

انعكاسات التربية الجمالية في حياة الفرد والمجتمع

إن تنمية الحس الفني في الطفل منذ السنوات الأولى يتطلب قدرا كبيرا من الفطنة لدى الأم والأب من خلال الاعتناء بتنمية الحس الجمالي لديه من خلال أولا:

-تنمية سماع الأشياء الجميلة في حياته بأن تربي الطفل على سماع الكلام الجميل الهادئ دون تعريضه إلى الأصوات الصافية، لأن هذ يجعل أكثر حركية واضرابا دون مبرر.

-سماع آيات من الذكر الحكيم لأن هذا يلطف روحه، ويجعله أكثر هدوء وطمأنينة وراحة نفسية.

-سماع بعض الموسيقى الهادئة والهادفة (بعض الأناشيد والأغاني).

-يجب أن يتحاشى تعليم الطفل (هذه العبارات غير اللائقة، كأن تقول الأم لابنها . سب أباك أو أخاك وخاصة في مرحلة بداية الكلام اعتقاد من أن هذا يكون سببا في تعود الطفل على الكلام ولكن في المقابل سيتعلم الطفل مثل هذه العبارات، وتصبح لازمة في حياته على أنها أخلاق.

-عرض على الطفل بعض اللوحات الجميلة للاستمتاع بها .

-مرافقة الطفل للقيام ببعض الزيارات إلى الحدائق أو بعض المناظر الطبيعية الخلابة الرائعة ...الأزهار،

الطيور والفراشات.

-مشاهدة بعض الأفلام الكرتونية للأطفال التي تهتم بالأداء والمفاهيم وليس مشادة أفلام الرعب والعنف والقتال.

التربية الجمالية في المدارس:

إن هناك ضرورات ملحة للاهتمام بترقية الحسي الفني لدى التلميذ بمتابعة النشاطات القولية والفعلية التي تحصل عليها الطفل وتتمحور حول الأمور الآتية:

-يجب إدخال المادة التربية الجمالية في التعليم الإبتدائي.

-مرافقة هذه المادة في حصص الرسم- البستنة-الرياضة، الموسيقى، ...لتكون عملية تأصيلية في التحصيل البيداغوجي للتلميذ ذلك أن هدف التربية الجمالية يتبلور ي تمكين التلاميذ من إعادة تنظيم أحاسيسهم ومشاعرهم ومعارفهم واتجاهاتهم نحو خاصية الجمال في الوجود، وذلك في سياق الخبرات التي يعيشونها داخل المؤسسة المدرسية وخارجها»[9] .

تؤكد جميع الدراسات التربوية أن الاهتمام بصقل مواهب التلميذ في مرحلة الدراسة في السنوات الأولى من حياته له كبير الأثر على نفسية الطفل في التعلم وتذوق الأشياء الجميلة، ويكون مفعولها في هذه المرحلة كبيرا جدا، حيث إن التلميذ تتفرع له هذه الثقة ويصبح قادرا على التعاطي مع هذ الأشياء الجميلة بانسيابية أما في مرحلة الكبير فإن التعليم يكون محاط بكثير من الصعوبات وعليه، تولي الدراسات أهمية كبيرة لهذه المراحل، وتوصي بضرورة إتساع الخطوات العلمية في جعل التلميذ أكثر استعدادا في تلقي الحين الجمالي.

ولهذا دعا شيللر إلى ضرورة الاهتمام بالجمال بوصفه الطريق الذي يمكن «أن يخلق كلمة الشخصية الإنسانية، يتعين الفن الحديث للمحدثين على تجديد الأخلاق وترسيم الطبيعة النبيلة» [10].

التربية الجمالية في الأقوال والسلوك:

في الآونة الأخيرة أصبحت الأقوال والسلوكات في الأوساط العمومية وحتى التربوية تتسم بالرداءة والبداءة والسوقية والفحش، إذ ينمو بع ض الشباب في الأماكن العمومية ...سيئا في الأقوال والأفعال من خلال هذه التوظيفات لمعجم لغوي فيه كثير من البداءة والإسفاف، مما أدى إلى أن بعض الآسر أصبحت تتحاشى التسوق، أو السير في بعض الأماكن تفاديا لسماع الكلام الفاحش، بل لم تسلم مؤسسات التربوية وحتى الجامعية من هذا المرض الذي أصاب أولادنا وطلابنا ومن الغريب جدا أنك قد تسمع

صديقين يضحكان ولكن يتلفظان أنواع السّب والشتم والبداءة ....لمثل هذه التصرفات .

إن تحليلا سوسيولوجيا ونفسيا لمثل هذه الحالات تكشف على أن الإنسان فقد مرؤه وقيمه الاجتماعية والدينية وهو ما يضعنا أمام أسئلة مركزية هل الضمير الأخلاقي والوازع الديني عننا في حالة غيبوبة؟ أم أن الأخلاق والمعاملات الآتية أصبحت عملة نادرة الوجود؟ وللإجابة على هذه الأسئلة لا بد من الإقرار أولا أن غاب مشروع بناء مجتمع قوام الفرد، يهتم بتزويد الأولاد بثقافة جمالية في الحديث والمعاملات ولهذا بات من الضروري الاعتناء بهذا المشروع جمالي في حياة الأفراد والشعوب من أجل أن تقدم صورة مشرقة عند العربي المسلم فمثلا في السبعينات من القرن الماضي في الجزائر حين يخرج الطفل من البيت للدراسة يسرع في تحية الآخر ومبادرته بكلام حلو جميل صباح الخير سواء أكان لجاره أو لمن يلتقيه في الشارع حتى لو لم تكن له علاقة مسبقة به ونادرا ما تسمع كلاما يخدش الحياء والمروءة.

-كانت المعاملات في الحافلات في منتهى الأدب واللباقة الأخلاقية حيث يسارع الصغير لترك مكان الكبير.

-الابتسامة سمة الجزائري، وكأن الجزائري أدرك أن دور الابتسامة كبير في التجانس والتآلف المحبة ولهذا ألف برغسون كتابه سماه LA RIE الضحك وقال الإنسان حيوان ضاحك.

وذهب برغسون أبعد من ذلك حين عدّ صفات الضحك في ثلاثة أشياء:

1-الضحك إنساني.

2-الضحك بعيد عن الانفعال والتأثر.

3-الضحك اجتماعي يقول برغسون «آلية ملبسة للحياة » ويذهب ...الفلاسفة بقوله إلى «أن الإنسان هو الأشد ألما بين المخلوقات الأخرى لأن يعي أنه سيموت، ولذلك لا بد له من أن يخترع الضحك».

الترجمة المالية في العمل:

إن هناك علاقة وطيدة وقوية بين الفن والعمل، فإذا كان العمل نشاطا إنسان يعبر عن السيكولوجية الاجتماعية المتطورة لمختلف فئات المجتمع وطبقاته فإن الحسن الفني هو الذي يغذي ثقافة العمل في شعب من الشعوب من حيث:

أ-حب العمل.

ب-الإخلاص في العمل والتفاني فيه.

ج-الاستمتاع بالعمل إذ يصبح لحظة من الاستمتاع والعشق والحب للعمل.

انطلاقا من هذا فإننا لم نعمل في الجزائر خاصة وفي المجتمع العربي الإسلامي عامة على الاهتمام بالتذوق الجمالي للعمل من حيث نظرتنا الجيدة والرائعة للعمل، بل على العكس تماما كرّسنا في ثقافتنا الشعبية مفاهيم في غاية السوء مثل:

-العمل للحمار والبغال.

-العمل غير سنته، هناك متسع من الوقت لتدارك ذلك.

-لماذا مستعجل عن العمل؟

-لماذا تبالغ في الإخلاص في العمل؟

-إن قيمة عملك لا يفي بما تقدمه من جهد وتعب.

-لقد أصاب مالك بن نبي حين وضع شروطا لتحقيق مركب الحضارة أو القفزة النوعية في قوله:

الحضارة= الإنسان+التراب+الزمن.

التربية الجمالية وعلاقتها بالزي واللباس:

يمثل اللباس شكلا من أشكال التمدن لدى الأفراد والشعوب، إذ يعكس مستوى تفكيرهم ونضجهم العقلاني والاجتماعي لأنه يفرز أنماطا سلوكية منسجمة مع رؤاهم وأفكارهم، وطرائق تدينهم ومستويات حالاتهم الاجتماعية فالزي انعكاس حقيقي لدرجة المستوى الفني الذي آل إليه المجتمع عبر مراحلهم التطورية.

إن اللباس حادث اجتماعي يعكس مستوى تقدم ا لشعوب أو تخلفها، فهو الترمومتر (المقياس Thermomètre) لقياس درجة التقدم أو التخلف عند الشعوب، وعليه فالذوق لجمالي مرتبط باحترام الأزياء الراهنة أو المعبرة عن التقاليد والعادات أو المطابقة للطقوس الاعتقادية عند الأفراد والشعوب ولهذا يجب أن يكون الذوق الجمالي منسجما مع الأطر المتعارف عليها من قبل المجتمع والتي اتفق عليها وتجسّدن من خلال قوانين وينن اجتماعية أو مظاهر خاصة ولكن يتم العقاب إذا حدث الخروج عن السائد أو المألوف، وقد يكون الجديد جميلا ما لم يتعارض مع التقاليد والأعراف والقيم الاجتماعية والدينية

التي تعارف عليها المجتمع.

إن ترقية ذوق الزي لدى الشباب هو إسهام في خلق جيل جميل وقوي ومتماسك، يحترم الرجل رجولته في اللباس، وتحترم المرأة أنوثتها من خلاله، ولكن إذا وقع الخلل والخلط فكل شيء مرشح إلى إفرازات سلوكية غريبة وفساد في بناء مجتمع سليم.

ولهذا قال أحد الفلاسفة «إن المرأة التي تغادر باريس لقضاء ستة أشهر في الريف ترجع عتيقة قديمة ريفية، وكأنها ...نسيت نفسها خلال ثلاثين عاما».

إذا اللباس انعكاس لتربية جمالية تتماشى مع التقاليد والعادات والأعراف عند الشعوب والأمم.

التربية الجمالية وعلاقتها بالأكل والشراب

إن الأكل والشراب نشاط إنساني راق مرتبط إلى حد كبير بثقافة ذوقية جمالية راقية لأنه يمثل حالة من الانفتاح والرقي ومرهون بوسط اجتماعي مؤهل في السلامة الذوقية للتغذية الجمالية وعليه فلا يمكن أن يأكل الإنسان في أماكن لا تتوفر على شروط جمالية تكون منفتحة عن الأكل.

-الأكل في وسط شعبي فيه ازدحام، ورفع للأصوات وما إلى ذلك.

-فضاء الأكل يجب أن تكون متوفرة على أماكن تفتح الشهية، وتبعث على الراحة النفسية لأن الاكل ليس مجرد رص البطن بأنواع من الأطعمة بل حالة من الاستمتاع بتذوق الأكل.

-أن يكون المطعم بعيدا عن كل ما من شأنه تفكير شبهة الذوق.

-والأهم من ذلك أن يكون القائمون والمشرفون على الأكل في لباس أنيق وجميل.

-أي الاهتمام بالأشكال التي تقدّم فيه الأطعمة والحلويات وغيرها.

انطلاقا من هذا فالأكل والشراب والزي قيمة جمالية راقية، وحالة من حالة تطور الفن، فهو الذي يؤسس هذا المجال، ويغذي هذه الثقافة، ويهذب السلوك وينمي الإحساس. بتذوق الأشياء الجميلة .

وفي الأخير نخلص إلى أن الفن شكل من أشكال التطور الحاصل في بنية المجتمع، ذلك أن يؤسس ثقافة ذوقية جمالية في غاية من الرقي والحسن وهنو انعكاس حقيقي لمستوى الأنماط التفكيرية والمعرفية والفنية التي وصل إليها المجتمع عبر مساره الوجودي، فهو يمثل الحالة من التفكير والنظر ال فني للأشياء والوجود والحياة.

[1] _ فريدريك شيلر التربية الجمالية للإنسان، ترجمة وتقديم وفاء محمد إبراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، ص 38.

[2] _ مشكلات الحضارة وجه العالم الإسلامي مالك بن نبي ترجمة عبد الصبور شاهين، الطبعة الأولى، دار الفكر، 1986، دمشق، ص 12.

[3] _ مشكلات الحضارة وجه العالم الإسلام مالك بن نبي، ص 32.

[4] _ مشكلات الحضارة، القضايا الكبرى مالك بن نبي، الطبعة 1991، دار الفكر، دمشق، ص 77.

[5] _ المرجع نفسه، ص 78.

[6] _ مجلة رؤوى العدد 22/ 2006 مركز القطان للبحث ولتكوين التربوي، رام الله، فلسطين، عز الخطابي في الجامعة إلى تربية جمالية

[7] _ فلسفة الجمال ....، بشرى عباس، ص 118.

[8] _ فلسفة الجمال والفن، عباس بشرى، ص 141، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ص 2018.

[9] _ مجلة جامعة دمشق المجلد26 العدد3 2010 الخبرة الجمالية وابعادها التربوية في فلسفة جون ديوي صابر .....ص 122.

[10] _ فلسفة الجمال والفن عند شيللر بشرى عباس، ص 285.